عازف الكمان على الجمجمة !..

محمود درويش

كنا نحملها حرفا حرفا ، نقطة نقطة ، ونسافر من جهات الدنيا الاربع الى برلين . هناك اكتمل الاسم ، فأطلقناه كالحمام والرصاص .. صرخة رددها نصف مليون حنجرة : فلسطين تحيا ..

وفي الطريق من الشرق الاوسط الى برلين ، كنا نقرأ مرثية الكراهية القبيحة التي اعلنها الغزاة عن موت فلسطين « التي لم تعد موجودة » . كانوا يترجمونها حرفا حرفا ونقطة نقطة .

برلين ! ما أقسى الزمن ، وما أشد طاعته حين تكون الايدي قوية وواعية . لقد أتعبتك القصائد التي تروي معجزة النهوض من بين الانقاض . ولكن ينبغي أن تفهمينا ، لاننا نستخرج اسمنا من بين الانقاض .

كان ياسر عرفات يستدرج ذكرياته في ذلك المساء الالماني الجميل : كم كبرنا ! . قبل أكثر من عشر سنوات كنا نتسلل الى مثل هذه المناسبة في وارسو . كنا ثلاثة أو أربعة شبان نكتب اسم فلسطين على باقطة صغيرة ، فلا يعرفنا أحد ولا يقبلنا أحد . كنا غرباء عن العالم . وكان الوفد الاسرائيلي كبيرا ، وكان العلم الاسرائيلي كبيرا .

وماذا في برلين اليوم ؟ . في مهرجان الشباب العالمي العاشر ، عرف الضمير الانساني العالمي المشترك في المهرجان أن فلسطين تلاحقه بقسوة المثول أمام امتحان القيم . وان قضية الحرية لا ينبغي ان تتحول الى وجهة نظر قابلة للحياد عند حدود فلسطين . فكان العالم المحتشد في برلين من قارات الارض كلها يهتف لفلسطين هتاف المستقبل والحاضر والماضي المشوب بالاحساس بالذنب والاثم أحيانا . ليس الشرق شرقا والغرب غربا الى هذا الحد . وان عقدة الذنب التي لاحقت الكثيرين من الاوربيين تجاه المصير اليهودي آخذة في التحول التدريجي ، عند الشباب خاصة ، تجاه المصير الفلسطيني الذي قُدِّم عقوبة مجانية لجريمة لم يرتكبها العرب . لقد تمادى الاسرائيليون في الابتزاز ، وتاجروا بكارثة آبائهم متاجرة دفعت الجيل الاوروبي الجديد الى اعادة النظر بذنب لم يرتكبه . ان جيل الشباب اليساري والديموقراطي الذي هز الغرب بمظاهرات التأييد لثورة الشعب الفيتنامي هو نفسه الذي يلتف اليوم حول حركة الشعب الفلسطيني التي تمثل جوهر قضايا الحرية في هذه المرحلة من العصر ، بكل ما تعنيه من مقاومة للأمبريالية العالمية وامتحان لجدارة الانتماء الى البشرية .

لم يدهشنا أن يتجاهل الغزاة الاسرائيليون هذا المعنى وهم ينظرون ، بحزن ، الى مهرجان برلين . لقد استسهل وزير خارجيتهم المتحذلق تفسير هذه الظاهرة الجديدة فنسبها الى « المعاداة الجديدة لليهود » . ولا يبدو ان الاسرائيليين سيكفون عن مطاردة الضمير الاوربي بذكريات ما حدث لليهود . ولا يبدو أنهم سيتوقفون عن اهانة